الخلفيات المتحكمة في تبني الزاوية الدرقاوية بالمغرب
لنهج المقاومة والدعوة إلى الجهاد

قاسم الحادك

كلية الآداب سايس فاس المغرب

مقدمة:

تعتبر الزاوية الدرقاوية من الزوايا القليلة التي تحركت في بنياتها آليات المقاومة وتبنت مواقف معارضة للاحتلال الفرنسي، وأعلنت جل زعاماتها الصوفية والقبلية عن رفضها القاطع ومعارضتها الشديدة للمشاريع الاستعمارية، وعملت على تنظيم المقاومة والدعوة إلى الجهاد. هذا التوجه الذي اختاره الدرقاويون جعلهم حالة استثنائية بين غالبية الزوايا والطرق الصوفية التي اتسمت مواقفها بالسلبية والركون إلى مسالمة قوات الاحتلال أو دعم ومساندة مخططاتها الاستعمارية. مما يفسر اكتساح الزاوية الدرقاوية لمختلف مناطق المغرب وقتذاك وتفوقها على باقي الزوايا والطرق الصوفية التي كانت تفقد أتباعها بسرعة لصالحها، ومن ثم قدم الدرقاويون في هذا الظرف الدقيق والحرج من تاريخ المغرب زعامات صوفية وقبلية كان لها شأن كبير في تنظيم المقاومة والجهاد. كما أن هذا النهج الذي تبنته الزاوية الدرقاوية لم يكن وليد الصدفة، بل تحكمت فيه عوامل متعددة جعلت غالبية شيوخ الزوايا الدرقاوية وزعاماتها الصوفية تتبنى المقاومة، وتقرر إحياء الممارسة الجهادية ومعارضة المشاريع الاستعمارية الفرنسية.

1 – تأسيس الزاوية الدرقاوية و نشأة طريقتها الصوفية:

استطاعت الطريقة الدرقاوية بفضل النسب الشريف لمؤسسها[1] أن تصبح إحدى أهم الطرق الصوفية في المغرب، وتمكنت بسرعة فائقة من استقطاب النخب الحضرية والقروية خاصة في الأوساط القبلية الأمازيغية، فكثر من بين أتباعها العلماء والفقهاء، وبدأ المريدون يأتون جماعات إلى بوبريح لتلقي تعاليم الشيخ الجديد[2].

وقد أحدث توسع الدرقاويين وانتشارهم هزة قوية داخل المجتمع المغربي[3] في إطار تصورهم الرامي إلى هذا المشروع الديني والصوفي في شكل ثورة على تجديد التصوف الشاذلي واستعادة حركيته ومصداقيته، وتجسد

---

[1] – ينتسب الدرقاويون إلى الشريف الإدريسي سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي الزروالي، المزداد سنة 1737م بقبيلة بني زروال، وبها نشأ وحفظ القرآن، ثم رحل إلى مدينة فاس وأقام بها مدة درس خلالها على كبار العلماء. أسس مولاي العربي الطريقة الدرقاوية سنة 1786م في منطقة بوبريح بقبيلة بني زروال وهي الزاوية الأم للطريقة الدرقاوية، وسميت بذلك نسبة إلى جده أبي عبد الله محمد بن يوسف الملقب بأبي درقة لأنه كان ملازما لدراقة تقيه في الحروب.

[2] – Spillmann Lieutenant, Etude inédite sur Les Confréries religieuses au Maroc, C.H.E.A.M, p.5.

[3] – الخداري محمد، دور الزوايا و الطرق الصوفية في العلاقات بين المغرب و ولاية الجزائر، حالة الزاوية الدرقاوية من 1786 إلى 1823م، دكتوراه وطنية في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، السنة الجامعية 2004-2005، ص194.

والتشتت. وقد تجلت هذه والتآكل القيم السائدة في المجتمع المغربي وخاصة التصوف الطرقي المتسم بالتقادم الثورة بوضوح في أسس الطريقة الدرقاوية وأحوال شيوخها ومريديها التي بدت غير مألوفة في الواقع الديني والصوفي على السواء.

لقد نجحت الطريقة الدرقاوية خلال فترة وجيزة في اكتساح جل مناطق المغرب واستقطاب قاعدة كما استطاعت أن تتغلغل في أعماق جماهيرية واسعة[1]، وتمكنت بذلك من مراكمة رأسمال رمزي وشرعي كبير. وأن تفرض تأثيرها على الصعيدين الاجتماعي والسياسي. مختلف شرائح المجتمع المغربي من أعيان وفئات شعبية، وجعلها تنجح في خلق هذا الحماس إن أهم ما ميز الطريقة الدرقاوية عن غيرها من الطرق و الزوايا[2]، الشعبي والتعاطف الواسع لمختلف فئات المجتمع المغربي من نخب و أعيان وعامة[3]، كونها تدعو إلى تصوف عملي اجتماعي يساهم في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية دون الانعزال في الجبال والاعتكاف في الزوايا[4]. كما أنها لم تدع إلى التشبث بالسنة فحسب، بل كانت تعلن مرجعيتها المذهبية المتعددة من كتاب وسنة وسيرة السلف الصالح[5].

هكذا إذن استطاعت الطريقة الدرقاوية أن تهيمن على المشهد الصوفي المغربي أواخر القرن الثامن عشر، وتنفرد دون غيرها من الطرق الصوفية بمهمة إحياء التصوف الشاذلي[6] وتجديد النشاط الصوفي وتخليصه عمليا ونظريا من قيود وتعقيدات سيطرت عليه طويلا، وجعله مسايرا للأحداث و المستجدات التي يشهدها المغرب.

وعملت على تحرير التصوف الطرقي المغربي كما أعطت الطريقة الدرقاوية دفعة قوية للتراث الشاذلي، وأعادت له حيويته ونشاطه في إطار تصوف عملي اجتماعي يشارك من عادات وطقوس سيطرت عليه منذ قرون،

---

[4]–Odinot Paul, Le Monde religieux, R.F.M, 9eme Année, №107, Octobre 1925 , p.399.

[5]- الخداري محمد، م.س، ص196.

[6] – نفسه.

[7]-–Drague George, Esquisse d'histoire religieuse du Maroc, Paris,1951, p. 264.

[8]- نبه ميشو بلير إلى الخطورة التي ستشكلها الطريقة الدرقاوية قائلا:"إن انفراد الطريقة الدرقاوية بمهمة إحياء التصوف الشاذلي وتجديده دون غيرها من الطرق... يفرض علينا أن نولي هذه الطريقة اهتماما جديا" ، انظر:

نور الدين، الزاوية والحزب: الإسلام السياسي في المجتمع المغربي، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط 1، 2003، ص9. –الزاهي

[9]– Michaux Béllaire, Essai sur l'histoire des confréries Marocaines, in Hesperis,VI, 1921. p.156.

إنها مهمة جعلت الشيخ المؤسس مولاي العربي الدرقاوي يوصف في مختلف شؤون البلاد السياسية والاجتماعية[1]. بأنه شيخ عصره، مثلما اعتبر القرن التاسع عشر قرن الطريقة الدرقاوية[2].

عموما، ساهمت البنية الداخلية لعقيدة التصوف في جدلها مع الواقع المغربي في تثبيت وتعزيز موقع الدرقاويين وإظهارهم كبديهة تاريخية[3] وفاعل أساسي في الحركية السياسية والاجتماعية التي عرفها مغرب ما قبل الاستعمار، في الوقت الذي انغمست فيه باقي الطرق و الزوايا في المسائل والقضايا الدينية، واختنقت وضاقت تدريجيا بطقوس قاسية شديدة التكلف وشعائر آلية خالية.

2- الزاوية الدرقاوية واعتماد المرجعية الدينية الجهادية:

تعتبر الزاوية الدرقاوية من أبرز الزوايا المغربية التي تحركت في بنياتها آليات المقاومة وأعادت ربط المجتمع المغربي بتاريخه المحلي وخصوصا فترة المد الكامل للصلحاء في القرن السادس عشر[4]، فقد شكل الاستعمار الفرنسي الفرنسي للجزائر وبداية تحرشاته بالأراضي المغربية إطارا كافيا لهذه الزاوية كي ينصب عمل شيوخها وأتباعهم على تبني سياسة تنخرط بشكل كامل في المجال السياسي بتحريض المجتمعات القبلية ضد كل أشكال الاحتلال وهو ما مكن الزعامات المنتمية للزاوية الدرقاوية أو المتعاطفة معها من تثبيت سلطتها الرمزية وتكريس الأجنبي. قدسية مواقفها، فكان من النتائج المباشرة لهذا النهج الذي تبناه الدرقاويون انتشار الأفكار والمبادئ الدرقاوية في

---

[1]- الخداري محمد، م.س، ص259.

[2] -Drague G, op.cit, p.267.

-Drouin Jeannine, un cycle hagiographique orale dans le moyen Atlas, imprimerie nationale, Paris, 1975, p.15.

[3]- الخداري محمد، م.س، ص259.

[4] - الزاهي نور الدين، م.س، ص8.

- حول الأدوار التي قام بها رجال التصوف وشيوخ الحركة الصوفية في تنظيم أمور الجهاد والرد على الغزوات المسيحية على السواحل المغربية خصوصا الهجومات البرتغالية خلال هذه الفترة، يمكن الرجوع إلى:

- الذهبي نفيسة، الزوايا المغربية في القرن 11هـ-17م قراءة تركيبية، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، العدد13، 2005، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، ص:47-48.

- بن عتو عبد الله، التصوف المغربي، من عمق السياق الى قوة الرمز، المناهل، الجزء الأول، العدد 80-81، الرباط 2007، ص:294.

- Michaux Bellaire, Les confréries religieuses Au Maroc, A.M, Vol XXVII, Librairie Ancienne Honoré, Paris 1927, p.59.

مختلف مناطق المغرب وتحول شبكة الزوايا الدرقاوية المحلية إلى قوة دينية وسياسية تتمتع بنفوذ واسع عجز المخزن عن احتوائها[1].

هذا التوجه الذي اختاره الدرقاويون جعلهم حالة استثنائية بين مختلف مكونات الحقل الصوفي المغربي، فطيلة الفترة الممتدة من أواسط القرن التاسع عشر إلى عشرينيات القرن العشرين، عرف المجال القروي المغربي حركية وديناميكية مكثفة وخطيرة كانت الزاوية الدرقاوية حاضرة فيها بطريقة مباشرة سواء بشكل كامل أو جزئي، من خلال المنتسبين إلى بعض زواياها الفرعية أو المتعاطفين معها أو الذين يعتقدون في بنائها المذهبي[2]. إنها زعامات دينية وقبلية أفرزتها الزوايا الدرقاوية سواء بوصفها علاقة انخراط أو تعاطف أو دعم ومساندة[3]، تشددت ضد كل أشكال الغزو الاستعماري، خاصة على المستوى الفكري من خلال اعتماد المرجعية الدينية الجهادية وتبني وسائل تأطيرية لخوض هذا النشاط الجهادي كالآليات الدينية والطرقية والقيم القبلية.

3-الوضعية التنظيمية اللامركزية للزاوية الدرقاوية:

إذا كانت غالبية فروع الزاوية الدرقاوية قد اتخذت مواقف واضحة معارضة للتدخل الفرنسي في المغرب، ومثل شيوخها ومريدوهم وأتباعهم الجناح المناهض للغزو والاحتلال أحسن تمثيل، وكرسوا جهودهم لتعبئة القبائل المغربية وتوعيتها بضرورة الاتحاد والتكتل، فإن هذه الاستراتيجية الرافضة للاحتلال الفرنسي والمتبعة من قبل غالبية الدرقاويين على صعيد مختلف جهات المغرب[4]عرفت حالات خاصة ومحدودة خرجت عن هذا المسار الجهادي، ونخص بالذكر الزاوية المركزية المتواجدة في بني زروال، حيث كان المخزن ومن بعده سلطات الحماية يتوفران على حليف هام يتمثل في الشريف عبد الرحمان الدرقاوي[5] الذي ساهم بشكل فعال في مختلف مراحل

---

[1] – Depont octave et Coppolani Xavier, Les confréries religieuses musulmanes, A. Jourdan, Alger,1897, p.512.

[2]- الزاهي نور الدين، م.س، ص12.

[3]– نفسه.

[4] –Michaux Bellaire, Essai sur…, op.cit, p.156.

[5]- اكتفى مولاي الطيب بتسيير أملاكه والاهتمام بمصالحه توفي سنة 1870م ودفن في أجحوط وهي الزاوية التي أسسها سنة 1863م. اتبع ابنه وخلفه مولاي عبد الرحمان 1927-1949 نفس النهج في قيادة الزاوية الأم حيث حافظ على علاقات حسنة مع المخزن، واستقبل السلطان المولى الحسن عند زيارته لضريح مولاي العربي الدرقاوي. ولم يشارك الشيخ الدرقاوي مولاي عبد الرحمان في الثورة التي تزعمها بوعزة الهبري، كما رفض تقديم أي مساعدة للجلالي الزرهوني(بوحمارة)، بل وساهم في منعه من الوصول إلى شفشاون مما جعله يتراجع أمام القوات المخزنية بقيادة بوشتى البغدادي، كما لم يقدم أي دعم للشريف الدرقاوي الحجامي الذي شارك في الهجوم على فاس في 25 ماي 1912م. ومع توقيع معاهدة الحماية لم يغير مولاي عبد الرحمان موقفه الداعم للمخزن ولسلطات الحماية ورفض السير على نهج باقي الزعامات الدرقاوية التي تبنت الدعوة إلى الجهاد. أنظر بهذا الخصوص:

–Drague G, op.cit, p.256.

السيطرة العسكرية الفرنسية على منطقة ورغة[1]، واعتمدت السلطات الفرنسية على نفوذه الديني والقبلي لصد كل المحاولات التي قام بها زعيم الحركة الريفية لبسط نفوذه على قبيلة بني زروال. غير أن هذه المواقف المتناقضة لمختلف الشيوخ الدرقاويين وإن كانت تطرح أكثر من علامة استفهام حول غياب التنسيق والانسجام في مواقف الزوايا الدرقاوية بسبب عدم قدرة القيادة الروحية للزاوية الأم على فرض سلطتها على مختلف الزوايا الفرعية، فإن ذلك لا ينقص في شيء من مكانتها كزاوية مجاهدة ومقاومة باعتبارها "الزاوية الوحيدة التي استطاعت أن توفر إطارا للمقاومة القبلية واستجابت لمتطلبات نهج المقاومة وتنظيمها "[2]، خصوصا إذا أخذنا بعين الاعتبار ما كانت تتمتع به فروعها من استقلالية عن شيخ الزاوية الأم الذي لم تكن له سلطة فعلية على باقي الفروع[3].

وقد تكرست هذه الوضعية اللامركزية بعد وفاة مؤسس الزاوية الشيخ مولاي العربي الدرقاوي، وعدم اعتراف مختلف الزعامات الدينية والقبلية الدرقاوية بأحقية خليفته في تولي مشيخة الزاوية؛ حيث وقع الاختلاف بين الزوايا الفرعية والزاوية الأم، "لكن هذا الاختلاف لم ينف عن فروع الزاوية الدرقاوية طابعها الدرقاوي بل مس فقط مواقفها من المخزن والمستعمر، لهذا السبب لم تكن لها نفس المواقف ونفس ردود الفعل"[4]، ويرجع ذلك بالأساس إلى تبني شيوخ هذه الزوايا لمواقف تراعي خصوصيات المحيط السوسيواقتصادي الذي نسجت فيه شبكة ولاءاتها، وتستجيب لمتطلبات الأوساط القبلية التي تشكل شرطا أساسيا لوجود وتطور زواياهم، وخضوعهم إلى "ضرورات وسطهم حيث تم تأسيس حظوتهم، وكذلك إلى الحاجيات التي يفرضها عليهم تطور فرعهم الخاص"[5]. يتعلق الأمر إذن بالوضعية التنظيمية اللامركزية للزاوية الدرقاوية التي لا تلزم الزعامات الدرقاوية في مختلف مناطق المغرب بضرورة اتباع الموقف الرسمي لشيخ الزاوية الأم والانسياق ضمن نهج موحد موافق له كما هو حال مختلف الزوايا والطرق الدينية.

إن عدم خضوع الدرقاويين للآليات ذات الطابع المؤسساتي المتمحورة حول الزاوية المركزية الأم، وإن كان ظاهريا قد أثر على وحدة الزاوية[6] وحال دون تبنيها لمواقف سياسية موحدة على غرار باقي الطرق والزوايا

−Odinot Paul, op.cit, p.399.

[1]- برحاب عكاشة، الزوايا والطرقية في مخطط الإقامة العامة، مجلة أمل، العدد 22-23، السنة الثانية، 2001،ص93.

[2]- روس إ.دان، المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي: المواجهة المغربية للامبريالية الفرنسية 1881-1912، ترجمة أحمد أبو حسن، منشورات زاوية، الرباط، 2006، ص295.

[3]−Michaux Bellaire, Essai sur… , op.cit, p.156.

−Drague G, op.cit, p.286.

p.506. − Depont octave et Coppolani Xavier, op.cit,

[4]- الزاهي نور الدين، م.س، ص9.

[5]- نفسه.

[6]−Drague G, op.cit, p.256.

الدينية (الناصرية، الوزانية، الشرقاوية...)، فإنه في المقابل شجع طموحات شيوخ الزوايا الفرعية، وزاد من رغبتهم في الانعتاق من وصاية الزاوية الأم ومراعاة خصوصيات الوسط الذي ينتمون إليه[1]، وتفادي ما من شأنه أن يؤدي بهم إلى الدخول في تناقض مع المجتمعات القبلية المحلية الفاعلين فيها.

لقد عمل هذا التوزيع الجغرافي لشبكة الزوايا الدرقاوية المستقلة عن الزاوية الأم على مضاعفة إشعاع الدرقاويين وانتشارهم، فكل زاوية ستحاول تدعيم استقلالها وزيادة أتباعها وتقوية نفوذها[2]، ولن يكون ذلك ممكنا والقبلي الذي تنشط فيه. فبينما فضل بعضها عدم التدخل في المجال إلا باتخاذها مواقف تنسجم مع المجال الجغرافي تبنى البعض الآخر سياسة معارضة للمخططات الاستعمارية ودعا إلى السياسي أو اتخاذ مواقف سياسية مهادنة، المقاومة والجهاد.

إن هذا الشكل الذي عرفته الزاوية الدرقاوية، لا يخرج عن إطار التنظيم اللامركزي الذي جعل الزوايا الدرقاوية الفرعية في مختلف مناطق المغرب تتحرك حسب موقعها الجغرافي وحاجياتها وإمكانياتها، وحسب الآليات التي يختزنها تاريخها المحلي[3]. فالزاوية الدرقاوية الأم المتواجدة في بني زروال عرفت بمسالمتها للمخزن العلوي لاسيما بعد وفاة شيخها المؤسس مولاي العربي الدرقاوي، لذلك أصبحت مؤسسة سياسية مؤهلة لكي تقف في صف السلطان والمخزن الفرنسي، ومن ثم اعتبر شيخها مولاي عبد الرحمان الدرقاوي أن موقفه الداعم للمخزن المركزي والمساند للسلطات الاستعمارية لا يخرج عن إطار الالتزام بالوفاء للسلطان والحفاظ على أمن واستقرار البلاد[4]، خصوصا وأن السلطات الفرنسية كانت تقوم بأعمال الغزو باسم السلطان ولصالحه.

غير أن هذا المبرر لا يمكنه بأي حال من الأحوال أن يخفي الدوافع الحقيقية لموقف هذا الشيخ الدرقاوي، والنابعة أصلا من تخوفه من التهديد الذي قد تشكله سلطات الحماية الفرنسية على المصالح المادية لزاويته ومستقبلها ككل، ورغبته في حماية مصالحه من ضغوطاتها[5]، فزاويته عبارة عن مؤسسة إقطاعية تتوفر على أراضي وعقارات ومداخيل مالية مهمة فرضت عليه مساندة المشروع الاستعماري الفرنسي لحمايتها.

4-الزاوية الدرقاوية والمخزن:

الزوايا بفعل مسلسل المخزنة: الزاوية الوزانية والناصرية نموذجا: أ- تأثر بعض

إن فهم المواقف التي اتخذتها الزاويا والطرق الصوفية من الاحتلال الفرنسي، والإحاطة بالأسباب التي جعلت الزاوية الدرقاوية على الخصوص تتبنى المقاومة، وتقرر إحياء الممارسة الجهادية ومعارضة المخططات التوسعية الفرنسية، وانتقاد عجز المؤسسة المخزنية عن مواجهة هذه التحديات، في الوقت الذي ارتمت فيه زوايا

[1] – La croix N, Les Darkaouas d'hier et d'aujourd'hui, Alger,1902 ,p.5.

[2] –Drague G, op.cit, p.256.

[3] – الزاهي نور الدين، م.س، ص11.

[4] –Drouin Jeannine, op.cit, p.14.

[5] –Odinot Paul, L'importance politique…,op.cit, p.294

أخرى في أحضان المشروع الاستعماري الفرنسي ودعمته بكل إمكانياتها ووسائلها، رهين بتتبع التطور الذي عرفته هذه المؤسسات الدينية من نشأتها إلى المرحلة الاستعمارية، وتحليل طبيعة العلاقة المنسوجة تاريخيا بينها وبين المخزن.

فهل تمثل الزاوية سياسة مضادة لسلطة المخزن ورافضة أن يشاركها مجال نفوذها السياسي حسب ما أم إن الزوايا ليست سوى مجرد تؤكده أطروحة الصراع بين الزاوية والدولة كما تدافع عنها الأطروحة الكولونيالية ؟ أداة سياسية من صنع المخزن، أو على أقل تقدير هي موجهة من قبله لخدمة سياسته على مستوى القبيلة كما أم إن واقع العلاقة بين الزوايا والمخزن يظل أعقد تدافع عن ذلك الأطروحة الوطنية في شخص عبد الله العروي[1]؟ مما يصوره هؤلاء، وأبعد من أن يختزل في إطار إحدى المقولتين: صراع أو إخضاع ؟[2]

إن وضع الزاويا في إطار علاقتها بالمؤسسة المخزنية يظل وضعا معقدا يتغير باستمرار وتحكمه مجموعة من التناقضات ولا يمكن استيعابه وتأطيره إلا وفق تصور جدلي يفترض الصراع كما يفترض الخضوع والتعاون[3] .

لا يمكننا الحديث هنا عن علاقة المخزن بكل الزوايا والطرق الصوفية، لأن ذلك يحتاج إلى دراسة وإنما سنحاول إبراز نوعية وبعض مظاهر العلاقة التي كانت تربط المخزن بهذه المؤسسات الدينية منفصلة ومفصلة، والتي ظل تأثيرها مستمرا ومتواصلا حتى حدود الفترة الكولونيالية.

عمل المخزن طوال تاريخه على إخضاع الزوايا[4] وإدماجها ضمن سياسته قصد توظيفها كأدوات وقد خضعت هذه العملية لسيرورة طويلة الأمد يمكن القول معها إن المخزن في علاقته لترتيب سيطرته وتبريره. وبلور من أجل ذلك عدة وتارة أخرى بالعنف، بهذه المؤسسات حاول جاهدا إضعافها بأشكال مختلفة تارة باللين التدجين ووضع الزاوية خارج الشرع[5]، وهي استراتيجيات هدفت في مجملها الاحتواء، استراتيجيات أهمها المواجهة، مجملها الدفع التدريجي للزوايا نحو المجال الديني والاقتصادي وتقليص نفوذها السياسي[6].

---

[1]- الزاهي نور الدين، طبيعة الانتقال والتحول...، م.س، ص164.

[2]–حجاج محمد، الزوايا، المجتمع والسلطة بالمغرب(مقاربة سوسيو–أنتروبولوجية)، فكر ونقد، السنة العاشرة، عدد 94، يناير 2008، ص50.

[3]– نفسه.

[4]- ظريف محمد, مؤسسة الزوايا بالمغرب، منشورات المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، ص119.

[5]- نفسه، ص 119–129.

[6]- الزاهي نور الدين، طبيعة الانتقال والتحول...، م.س، ص164.

أدرك المولى إسماعيل قوة مؤسسة الزاوية وتأثيرها الروحي على المناطق التي توجد فيها، فشيوخها "يؤمنون الاستمرارية والهيكل القوي الذي يحتاج إليهما بإلحاح النظام السياسي للقبائل"[1]، كما أنهم "حجر الزاوية للقبائل"[2]، فانتهج أسلوبا متطورا حاول من خلاله خلق نوع من التوازن في –نظام التحكيم–للنظام القانوني سياسته بإقامة علاقة وفاق بينه وبين معظم الزوايا، فالسلطة المركزية محتاجة إليهم لضمان استمراريتها، ولم يحاول اقتلاع هذه المؤسسة من جذورها من خلال ضرب عوامل ارتكازها[3]، بل حاول فقط انتهاج سياسة غايتها أن تؤدي على المدى البعيد إلى ضرب الشروط المادية لتواجد الزاوية دون المساس بشرعية هذا التواجد، أو بعبارة أخرى تؤدي إلى تدجين الزاوية[4]، لأن بقاءها ممتلكة لكافة مقوماتها البشرية والاقتصادية كان يخدم المخزن باعتبارها إحدى الضروريات السياسية لتوازنه العام.

وقد حاول المولى إسماعيل الاستفادة من التأثير الروحي للزوايا لخلق نوع من التوازن السياسي، فعمل على استقطاب الزوايا ذات النفوذ الواسع منها[5]، خاصة تلك التي لها نفوذ واسع في مناطق حساسة محاولا إفراغها إفراغها من قوتها وحركيتها. ولعل أبرز تجليات هذه السياسة هو قراره القاضي بأن تجعل كل الزوايا مقرها بفاس[6]،)الجبل(إنه بكل تأكيد حرمان لها من عمقها الاستراتيجي والعسكري وتجريدها من مقومات تواجدها المادي بسجنها داخل الحاضرة فاس. ورغم ذلك فقد تميزت سياسة المولى إسماعيل بالمرونة، إذ لم يلجأ إلى السلاح لقمع الزوايا والطرق الدينية إلا مضطرا، بينما عمل على توظيف هذه الزوايا بعد تدجينها لبسط نفوذه على القبائل. فلمواجهة خطر زاوية آل أمهاوش وأحنصالة المتحصنين بجبال الأطلس عمل المولى إسماعيل شخصيا على ترأس الحركات الموجهة لقمعهم، كما قام ببناء عدة قصبات حول مستقراتهم لاحتواء خطرهم[7]، وبذلك استطاع السلطان الحد من عبث قبائل صنهاجة دون أن يستطيع القضاء على آل أمهاوش وأحنصالة[8].

---

[1]– أبو إدريس إدريس، علاقة الدولة المركزية بالزوايا، مجلة أمل، العدد 19–20، السنة السابعة، 2000، مطبعة النجاح الجديدة، ص 92.

[2]– نفسه.

[3]– ظريف محمد، م.س، ص 133.

[4]– نفسه.

[5] –Drouin Jeannine, op.cit, p.20.

[6]– ظريف محمد، م.س، ص 133.

[7]– من أجل احتواء الزوايا المرتبطة بتكتلات قبلية متحصنة عمد المولى إسماعيل إلى إنشاء حزام دفاعي صلب لمراقبة ومحاصرة هذه القبائل الأمازيغية، أنظر:

–Drouin Jeannine, op.cit, p.21.

–Drague G, op.cit, p.150.

[8] –Marty Paul, Les Zaouias Marocaines et Le Makhzen, Paris, Genthner, 1929, p.586.

وإذا كان المولى إسماعيل قد بدأ استراتيجيته الهادفة إلى ضرب المقومات المادية للزوايا بتدجينها بعدما فطن إلى أن عملية استقطاب زاوية ما يعني احتواء عدة قبائل سيتطلب إخضاعها جهدا كبيرا ووقتا طويلا، وهي السياسة التي "أعطت أكلها بحيث لم تقم الزوايا والطرق الصوفية طيلة فترة الأزمة التي تلت وفاة المولى إسماعيل بأية أدوار مهمة وكان حضورها محدودا"[1]، فإن السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي تولى ودامت ثلاثين سنة الحكم سنة 1757م تبنى بدوره نفس سياسة المواجهة في محاولة منه لاحتواء الزوايا والحد من خطورتها[2] وجعل أنشطتها تقتصر على المجالات الدينية دون غيرها، خاصة تلك التي توجد في مناطق نفوذه وتحت مراقبته، والعمل مقابل ذلك على حصر نشاط زعماء الزوايا البعيدين عن سلطته[3]. وأبرز مثال على ذلك قيامه سنة 1758م مباشرة بعد توليه الحكم بقتل أبي عبد الله محمد العربي الخمسي الذي كان يتمتع بشهرة دينية وصوفية كبيرة لدى قبائل غمارة والأخماس في منطقة شفشاون، وأمره أيضا بقتل كل من الزعيم الصوفي محمود الشنقيطي الذي حاول إثارة البلبلة في صفوف القبائل الأمازيغية، والحاج العموري الذي زعم بأنه "صاحب الوقت"[4]. كما قام سنة 1784م–1785م بتخريب الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد، حيث "...أمر بهدمها وطرد الغرباء الملتفين على آل الشيخ بها، ثم نقل سيدي العربي وعشيرته إلى مراكش"[5].

أما السلطان المولى سليمان فقد عمل على إكمال هذه السياسة وذلك بالتركيز على القضاء على أسس ومقومات شرعية الزوايا[6]. فقد تولى المولى سليمان الحكم سنة 1792م، وكان معروفا بورعه وتقواه وتعاطفه وتعاطفه مع المذهب الوهابي[7]، وقد استند على هذا الاتجاه السلفي لبلورة استراتيجية وضع من خلالها الزاوية خارج الشرع، فحاول في بداية حكمه القيام بنوع من التدجين للزاوية ليس على الطريقة الإسماعيلية[8]، ولكن على

---

[1]–Drague G, op.cit, p.84.

[2] – ظريف محمد، م.س، ص125.

[3]–Drague G, op.cit, p.84.

[4]– Ibidem.

[5]– الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، البيضاء، 1956، ج 8، ص59.

[6]– ظريف محمد، م.س، ص 134.

[7]–Drague G, op.cit, p.255.

–أجمع كل الذين عرفوا المولى سليمان عن قرب على صفات الزهد والتقشف التي طبعت سلوكه. ولم يفت الملاحظين الأجانب الذين زاروا البلاد أن يشيروا إلى بساطة نمط عيشه ونفوره من مظاهر الترف. فلباسه كان في غاية البساطة، كما أن بلاطه كان بعيدا كل البعد عن مظاهر الأبهة، وانطلاقا من ذلك أبدى السلطان المولى سليمان تعاطفا مع الأفكار الوهابية،فكان بالتالي من الحكام المسلمين القلائل الذين امتنعوا عن مهاجمة المذهب الوهابي، انظر:

–المنصور محمد، المغرب قبل الاستعمار المجتمع والدولة والدين(1792–1822)، ترجمة محمد حبيدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2006، ص223–228.

[8]– ظريف محمد، م.س، ص139.

طريقته الخاصة، حيث أكد على ضرورة ارتباط الزاوية بالشرع كشرط للسماح بتواجدها، لكن وأمام فشل هذه السياسة لجأ المولى سليمان لأول مرة إلى بلورة استراتيجية تهدف إلى اقتلاع الزاوية من جذورها من خلال وضعها خارج الشرع[1]، وذلك باتخاذ عدة إجراءات ترمي إلى إلغاء الحصانة التي كان يتمتع بها شيوخ الزوايا والطرق الدينية وحرمانهم من الامتيازات التي كانت تمنحهم السلطة المركزية حتى صارت حقوقا شبه مكتسبة. كما حاول فك الارتباط بين الزاوية والقبيلة من خلال تنديده ورفضه لممارساتها باعتبارها بدعا مخالفة للسنة، فمنع إقامة المواسم[2]التي لم تكن لها دلالة اقتصادية فقط كمصدر هام من مصادر الدخل، بل لها دلالات سوسيولوجية ودينية ودينية أيضا تتمثل في خلق شعور جماعي بالتماسك لدى أفراد الزاوية[3]، والعمل على تجديد الروابط والصلات بين بين شيوخ الزوايا وأتباعهم ومريديهم بشكل يضمن استمرارية الزوايا والطرق الدينية.

تعتبر الزاوية الوزانية والناصرية نموذجا للزوايا التي تحولت بالتدريج إلى أجهزة إدارية تابعة للمخزن تخدم مصالحه وتدافع عنها وتبررها أمام الناس وتسهم في تحقيق أهدافه وسياساته، وتجعل من نفسها أداة ووسيلة للدفاع عنه وتكريس شرعيته. وقد تكرست هذه التبعية المطلقة بفعل مسلسل المخزنة الطويل الأمد الذي تعرضت له هذه الزوايا وغيرها في إطار علاقتها بالمؤسسة المخزنية، فقد عمد السلاطين العلويون إلى احتوائها وتدجينها مستعملين في ذلك العديد من الآليات، فمنحوا شيوخ الزوايا ظهائر التوقير والاحترام وأعفوهم من الضرائب وأنعموا عليهم بالإقطاعات والهبات والهدايا، فتحولوا من رجالات زهد وتصوف ودين وعلم إلى مستثمرين في الميدانين الفلاحي والتجاري، يكدون في تسيير إقطاعاتهم ويتصارعون من أجل المحافظة عليها.

تمكنت الزاوية الوزانية بفضل تواجدها في موقع استراتيجي عند ملتقى الجبل والسهل من القيام بدور الحاجز الذي يفصل القبائل الجبلية وقبائل السهول، الشيء الذي دفع المخزن إلى محاولة التقرب منها والاستفادة من نفوذها الكبير ومن رأسمالها الرمزي والروحي وعمق ارتباطها وتلاحمها بكتلتها القبلية، وتسخيرها لخدمة مصالحه لضبط واحتواء الأوساط القبلية الجبلية[4] التي يتطلب إخضاعها وتعزيز سلطة المخزن فيها اللجوء المستمر للقوة العسكرية.

---

[1]- نفسه.

[2]- قام السلطان المولى سليمان بكتابة رسالة تحرم زيارة الأضرحة وإقامة المواسم ألقيت في مختلف مساجد المغرب، وهو ما اعتبره زعماء الزوايا والطرق الدينية بمثابة إعلان حرب ضدهم. فهل كان ارتكاز المولى سليمان على الأفكار و المبادئ الوهابية استمرارا لمسلسل الإخضاع والاحتواء الذي تبناه السلاطين العلويون ونهجوه طوال تاريخهم للحد من نفوذ الزوايا غير المندمجة بشكل كامل في النسق المخزني أم كان نابعا عن اقتناع وتشبع بهذه الايديولوجية الوهابية؟

[3]- ظريف محمد، م.س، ص 140.

[4]–Michaux Bellaire, L'évolution..., op.cit,p.24.

وإذا كان شيوخ الزاوية الوزانية قد شكلوا أحد دواليب السلطة المخزنية[1] التي لا يمكن الاستغناء عنها لتثبيت سلطتها في جهات نائية لا يمكن للمخزن أن يكون حاضرا فيها بقوة، فإنهم مقابل ذلك استفادوا كثيرا من هذا التحالف الضمني، فتمكنوا بفضل الامتيازات المادية والمعنوية التي كسبوها من نشر طريقتهم بسرعة داخل المغرب وخارجه وراكموا ثروات مادية كبيرة[2] مما جعلهم يشكلون من خاصة المجتمع[3]. أما الزاوية الناصرية فقد استغل شيوخها بعد المؤسسة المخزنية وعجزها عن القيام بوظائفها للتدخل في حل النزاعات بين قبائل درعة[4]، فأصبح شيخ الزاوية الناصرية يتمتع بدوره بنفوذ قوي وعدد هائل من الأتباع في كل درعة والمناطق المجاورة مستغلا عجز المخزن[5]، لكي يلعب دور الوساطة في الصراعات بين القبائل بحكم تواجده في مناطق نائية لم يستطع الشيء الذي دفع سكانها التوجه إلى السلطان الضعيف والبعيد، فتعودوا اللجوء إلى الزعيم الديني لتامكروت. المخزن إلى منح شيوخ الزاوية الناصرية العديد من الامتيازات جزاء على دعمهم وخدمتهم له واعترافا بالدور الهام آليات ضبط قبائل درعة وإخماد صراعاتها، فأصبحت الزاوية الناصرية أهم زاوية في الذي يقومون به في تدعيم الجنوب قبل أن تتوسع فروعها في جل مناطق المغرب لتصل إلى ما يناهز ثلاثمائة فرع مما زاد من ممتلكاتها وضاعف من مداخيلها[6]، وبذلك صارت من أهم الزوايا ذات النفوذ الواسع بالمغرب.

لكن هذه الوضعية المادية المتميزة التي عرفتها الزاوية الناصرية[7] أدت إلى احتدام الصراع و التنافس حول زعامة الزاوية، وهي الخاصية التي ميزت زاوية تامكروت على امتداد فترة طويلة. وقد ساهم تجدد النزاعات حول مشيخة الزاوية بشكل دوري غداة وفاة كل شيخ[8]، وتدخل المخزن باستمرار في الشؤون الداخلية للزاوية الناصرية بسبب عجزها عن حل مشاكلها الخاصة والتماسها الوساطة المخزنية لحل تلك النزاعات —وهي التي كانت إحدى وظائفها الأساسية التوسط بين القبائل لحل نزاعاتها الداخلية —بالإضافة إلى حصول الشيخ الجديد على تعيين من لدن السلطان، في تكريس التبعية التدريجية للمخزن وبالتالي فقدان الزاوية لاستقلالها.

---

[1]- العمراني محمد، الزاوية الوزانية والمخزن العلوي من مرحلة التأسيس إلى أواخر القرن الثامن عشر، مجلة المناهل، السنة 29، عدد 80-81، مطبعة دار المناهل، فبراير 2007، ص145.

[2] -Drague Georges, op.cit,p.52.

-Odinot Paul, op.cit,p.399.

[3]- العمراني محمد، م.س، ص145.

[4] – Bodin Marcel, La Zaouia de Tamegrout, A.B, Vol III, 1918, p290.

[5] -Drague G,op.cit,p.149.

[6]– Spillmann Lieutenant, op.cit, p.5.

[7] -Drouin Jeannine, op.cit, p.12.

[8] -Ibidem.

شكلت هذه السياسة التي نهجتها المؤسسة المخزنية منعطفا جديدا في تاريخ العلاقة بين الزاوية الناصرية والمخزن الذي استغل مشكل المشيخة فقام بتوجيه ضربة للزاوية عبر إشغالها في نزاعات داخلية وتحويلها إلى مجرد أداة طيعة من أدوات حكمه[1].

نشأت من إن ما تعرضت له الزوايا من تدخلات من طرف المخزن وفقدانها لقاعدتها وأساسها الذي وما تراكم لديها من معرفة بالأوضاع االسياسية، جعلها —وبعد أن ارتمت في أحضان المخزن— تختار أجله، الطرف الأقوى في المعادلة، فكانت إلى جانب الفرنسيين، وشاركت بنفوذها في تكريس الأوضاع الجديدة وإقناع أتباعها بضرورة الخضوع للمخزن الفرنسي، والعمل بالتالي على تفكيك وحدة المقاومة. بل إن بعض الزوايا كانت سباقة إلى طلب الحماية القنصلية قبل توقيع عقد الحماية بكثير، ونخص بالذكر شريف وزان الذي أعلن عن حمايته الفرنسية منذ1884م[2]، فقد كان نفوذ الشيخ الوزاني يشمل جل المناطق الشمالية للمغرب ويمتد حتى منطقة توات[3]، لكنه فقد مكانته داخل البلاط المخزني بعد حرب 1859_1860م ضد اسبانيا، فتراجع نفوذ زاويته وتقلصت مداخيلها. وبما أنه لايستطيع أن يستمر من دون دعم قوة سياسية، فقد حاول أن يجد في المناطق الجزائرية ما فقده في المغرب، ونجح في ذلك عندما التقت مصالحه مع مصالح الفرنسيين، فتحول من منفذ لسياسات المخزن إلى أداة لخدمة السياسة الفرنسية.

من هنا تبدو أهمية الوصاية السياسية كضرورة حيوية بالنسبة للزوايا، لذلك بادرت هذه الأخيرة بعد فقدان المخزن لهيبته للبحث عن تعويض لسلطته[4]، ولم يتردد شيوخها في التعامل مع المستعمر وتبني مخططاته وسياساته سواء خلال فترة الاستكشاف أو طيلة مرحلة الغزو[5].

لقد رأى شيوخ هذه الزوايا مثل شريف وزان وشيخ الناصريين والشرقاويين في الهجوم الاستعماري قدرا محتوما لا مفر منه، لذلك راحوا يعملون على إقناع مختلف القبائل بضرورة وحتمية الخضوع للمخزن الفرنسي،

---

[1] — تم تسجيل أول تدخل للمخزن المركزي في القضايا الداخلية للزاوية الناصرية بعد وفاة محمد بن بوبكر عندما قام السلطان المولى الحسن بوضع حد للصراع الذي اندلع بين شيوخ الزاوية حول زعامة الزاوية بتعيين الشيخ محمد الحنفي زعيما لزاوية تمكروت خلفا لأبيه، انظر:

– Bodin Marcel, op.cit, p.277.

[2] – Quelques mots sur les Confréries religieuses Marocaines, …,op.cit, p.288.

–على غرار فرنسا لم تتردد بريطانيا في الاستفادة من حماية شخصيات مغربية ذات وزن ديني وسياسي من خلال منحها الحماية للشريف المصلوحي زعيم الزاوية المصلوحية.

[3] –Michaux Bellaire, Le Touat et Les Chorfas D'ouazzane, Guenthner, Paris, 1928, p.147.

[4] –يعتبر جورج دراك أن السلطات العسكرية الفرنسية استفادت كثيرا من مسلسل الاحتواء والإخضاع الذي تبناه السلاطين العلويون طيلة قرنين من الزمن تجاه الزوايا والطرق الدينية، وهو المسلسل الذي نجح في جعل نشاطها يقتصر على الميادين الدينية دون المجالات السياسية.

[5] –Odinot Paul, op.cit, p.399.

وبالتالي تفكيك وحدة المقاومة، وبمواقفهم المساندة للوجود الفرنسي بالمغرب يكون هؤلاء الشيوخ قد خدموا مصالح المحتل وقدموا له دعما معنويا هاما[1].

ب – حرص الزاوية الدرقاوية على ضمان استقلاليتها عن المؤسسة المخزنية:

شكلت الزاوية الدرقاوية منذ ظهورها قوة دينية وسياسية كبيرة حفل تاريخها بالثورات والانتفاضات ضد المؤسسة المخزنية مركزيا وجهويا[2]، وقد منحتها هذه الثورات التي شارك فيها زعيمها مولاي العربي الدرقاوي[3] والعديد من أتباعه شهرة واسعة، فصارت تعاليمها ومبادئها بمثابة الورد الديني لقسم مهم من المغاربة، وأصبحت طريقتها من أهم الطريق الصوفية في المغرب ما بين سنتي 1790_1910م[4]، حسب لها المخزن ألف حساب وارتعد منها خصومها، ولهذا السبب اعتبر الفرنسيون الدرقاويين مجموعات متعصبة وفوضوية معادية لكل سلطة المؤسسة المخزنية[6]، الشيء الذي أهلهم للدخول في سياسية[5]، فأصبحوا يشكلون في مجملهم جبهة قوية لمعارضة في لعبة الاصطدامات السياسية معتمدين في ذلك على ما راكموه من قدسية ورمزية.

---

[1] – لم يكن زعيم الزاوية الناصرية على استعداد للتضحية بمصالحه وطموحاته القيادية خصوصا أمام زعامات جهادية كان يحسب لها الشيخ الناصري ألف حساب، فاختار معسكره منذ البداية مساندا للكلاوي والفرنسيين، حيث بادر الشيخ الناصري أحمد بن أبي بكر في يونيو 1914 إلى توجيه رسالة إلى المقيم العام الفرنسي الجنرال ليوطي يهنئه فيها بمناسبة احتلال تازة. موقف الزاوية الناصرية الموالي للفرنسيين لا يمكننا فهمه إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هذه الزاوية كان أتباعها من السكان الرحل ونصف الرحل والسكان المستقرين الذين يعتمدون على موارد معيشية محدودة، وهي معطيات وظروف اقتصادية واجتماعية تحكمت في مواقفهم إلى حد بعيد.

[2]– إن المتأمل في معظم الكتابات والدراسات الكولونيالية حول الزوايا والطرق الدينية بالمغرب يتبين له اتفاقها على الخطورة التي شكلتها الطريقة الدرقاوية على المخططات الاستعمارية ووصفها بالفوضوية والمعارضة والمحرضة على الفتن. فمثلا يعتبر coppolani الطريقة الدرقاوية"...طريقة للدراويش بثيابهم البالية المتسخة الذين غالبا ما يتظاهرون بنشر العلم، لكن هدفهم الحقيقي هو نشر الفوضى والتحريض على التمرد ضد السلطة السياسية، إنهم في عصيان مستمر ضد كل الحكام سواء كانوا عربا أو أتراكا أو مسيحيين...يخفون وراء ثيابهم الرثة وزهدهم أهدافا سياسية للوصول إلى السلطة"، أما Rinn فيعتبر الدرقاويين"بثيابهم المتسخة وشعرهم الطويل ومبالغتهم في العبادة والزهد وحذرهم من التعامل مع رجالات السلطة، يخططون لأهداف وغايات سياسية"، انظر:

–Drague G, op.cit, p.268.

وحسب جورج دراك دائما فقد كان السلطان مولاي عبد الرحمان والعديد من رجالات المخزن ينتمون للطريقة الدرقاوية، هذه المعلومة وإن كانت تتناقض مع ما أوردته الكتابات الكولونيالية حول أحوال الدرقاويين ومزاجهم الفوضوي، فإنها تجعلنا نتساءل حول ما إذا كان انخراط هذه الشخصيات الفاعلة في المخزن المغربي نابع عن اقتناعها بالأفكار والمبادئ الدرقاوية أم أنها رأت أنه لا مناص لها من التعامل مع هذه الأوساط القبلية الأمازيغية ونيل رضاها في إطار السياسة المخزنية المعروفة بالتقرب من الزوايا الكبيرة قصد احتوائها.

في حين يرى Bellaire Michaux أن الدرقاويين معارضين للمخزن بشكل آلي، انظر:

–Michaux Bellaire, Les confréries religieuses..., op.cit, p.84.

[3]–Drouin Jeannine, op.cit, p.15.

[4] –Drague G, op.cit, p.267.

[5] –Ibidem.

[6] –Ibid, p278.

– Depont octave et Coppolani Xavier, op.cit, p.512.

وقد أثار الإقبال الواسع الذي لقيته تعاليم الطريقة الدرقاوية ومبادئها مخاوف المخزن المركزي الذي رأى فيها خطرا محققا، ومن ثم عمل جاهدا على التصدي لها ومحاولة وقف انتشارها، لكن بعد فشل الحملات المخزنية الهادفة إلى قمع أتباع الشيخ الدرقاوي وعزلهم، وأمام إصرار هؤلاء على التشبث بالمبادئ والأفكار الدرقاوية، تبنى السلطان المولى سليمان خطة جديدة حاول من خلالها استمالة الشيخ مولاي العربي الدرقاوي وكسب طريقته إلى جانبه واستخدامها لمصلحته، وتوظيفها لتحقيق أهدافه وغايته[1]، وهو ما جعل العلاقة بين الطرفين تنتقل من الصراع إلى التعاون الذي تجلى بوضوح في سعي السلطان المولى سليمان للاستفادة من النفوذ الديني والسياسي للشيخ الدرقاوي عندما كلفه بمهمة تهدئة القبائل المتمردة ضد باي وهران[2] بعد أن " هاجت الفتنة بين عرب تلمسان والترك، وكان السبب في ذلك أن باي وهران كان له انحراف عن الفقراء والمنتسبين وسوء اعتقاد فيهم، فقتل بعض الطائفة الدرقاوية وأمر بالقبض على مقدمهم أبي محمد عبد القادر الفليتي تلميذ الشيخ الأكبر أبي عبد الله سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي شيخ الطائفة المذكورة"[3]، لكن المقدم الدرقاوي أبا محمد عبد القادر بن الشريف الفليتي فر إلى الصحراء ونجح في تعبئة أعداد كبيرة من الأتباع الدرقاويين الجزائريين الذين ضاقوا ذرعا بتصرفات الحكام الأتراك و"امتعضوا لمن قتل منهم ولنفي مقدمهم عن وطنه وعشيرته...وزحفوا لحرب الترك على حين غفلة منهم فقتلوهم في كل وجه..."[4].

وبعد أن تمكن درقاوة الجزائر من هزم الأتراك لمرات عديدة واشتد حصارهم لوهران، وأمام عجز هؤلاء عن فك الحصار لجأ باي وهران إلى مراسلة السلطان المولى سليمان وطلب منه "أن يوجه شيخهم مولاي العربي لإطفاء هذه النار، فوجهه السلطان وأمره أن يكف من سعى في ذلك ويردهم"[5]. لكن الشيخ الدرقاوي أيد تمرد أتباعه وخاطبهم قائلا: "إن الأتراك قد ولت أيامهم وقد ملككم الله بلادهم"[6]، فتزعم ابن الشريف الثورة ضد الأتراك سنة 1808م بدعم من الشيخ الدرقاوي الذي أذن له ولأتباعه"بجهادهم وقتالهم..."[7]، فازدادت "العرب بذلك تظاهرا على الترك وتكالبا عليهم، فاتهم الباي السلطان بأنه الذي يغريهم لأنه كان ينتظر الفرج على يديه"[8]، وبعد فك الحصار عن وهران توجه الشيخ الدرقاوي إلى تلمسان واتفق مع سكانها على خلع بيعة الأتراك

---

[1] –Michaux Bellaire, L'évolution politique..., op.cit, p.24.

[2] –Drouin Jeannine, op.cit, p.14.

–Drague G, op.cit, p.252.

[3] – الناصري، م.س، ص109.

[4] – نفسه.

[5] – أكنسوس محمد بن أحمد، الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي، تحقيق وتقديم أحمد بن يوسف الكنسوسي، الجزء الأول، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش 1994، صص283–284.

[6] –الخداري محمد، م.س، ص 263.

[7] –نفسه، ص: 260.

[8] – الناصري، م.س، ص110.

الأتراك ومبايعة السلطان المغربي وخطبوا باسمه في المساجد. كما وجه ابن الشريف "وفده وهديته إلى السلطان مع شيخه...فلم يبق للترك حينئذ شك في أن ذلك كله بأمر السلطان"[1].

وضعت هذه المستجدات السلطان المولى سليمان في موقف حرج، فمن جهة هناك حق الخلافة الذي يفرض عليه شرعا قبول هذه البيعة، وهناك من جهة أخرى عدم الرغبة في الدخول في مواجهة مباشرة مع الأتراك. وللخروج من هذه "الورطة" اختار المولى سليمان عدم إقحام نفسه في هذه المخاطرة، "فرد عليهم بيعتهم وطردهم وقبح فعلهم وخروجهم عن طاعة أميرهم ...وقال لهم ارجعوا إلى بلادكم ولا حاجة لي بولايتكم وتوبوا إلى الله من فعلكم "[2]. كما تبرأ من الشيخ الدرقاوي وأنكر تصرفاته[3]وعاتبه وطرده من بابه[4].

أدى رفض السلطان المولى سليمان لبيعة سكان تلمسان إلى دخول العلاقة بين الزاوية الدرقاوية إقدام السلطان على مهاجمة الطرق الصوفية وإدانة والمخزن المركزي مرحلة من الفتور والتأزم، زاد من حدتها —لأهداف سياسية محضة— فإن تأثره كان واضحا بالأفكار ممارستها[5]، فرغم تقبله لورد الناصريين والوزانيين الوهابية التي تحرم زيارة الأولياء والمواسم. مما جعله يصطدم بشيوخ الزوايا وأتباعهم.

عارض مولاي العربي الدرقاوي إجراءات السلطان وسياساته الرامية إلى الحد من النفوذ السياسي للزوايا والطرق الدينية من خلال إضعاف رصيدها المعنوي والنيل من تلاحمها، فثار أنصاره في مختلف مناطق المغرب وألحقوا بالقوات المخزنية عدة هزائم[6].

بعد أن عجز المولى سليمان عن إخضاع المجموعات القبلية لآيت سخمان بزعامة أبي بكر أمهاوش سواء باعتماد الوسائل العسكرية أو بفرض حصار اقتصادي خانق، قرر سنة1816م القيام بحملة عسكرية واسعة النطاق لإرغام هذه الأوساط القبلية على الإذعان[7]. وقد حاولت هذه الأخيرة العمل على تجنب هذه المواجهة عندما أرسلت إلى السلطان وفدا يطلب عفوه وشفاعته "فلما بلغوا بلاد العدو أتوهم بالنساء والولدان طلبا للمجاوزة والمسامحة، وأظهروا الطاعة والتوبة...فلم يساعفهم، ومنعه من ذلك من كان معه من رؤساء الأعراب والبربر، ولم يقبلوا الصلح"[8] . بعد رفض السلطان الصلح، أصبحت المواجهة حتمية بين الطرفين، وانتهت بهزيمة الجيوش المخزنية وأسر السلطان نفسه[9]. وقد كانت هذه "الوقعة الفادحة سبب سقوط هيبة السلطان المولى

---

[1] – نفسه، ص111.

[2]– أكنسوس، م.س، ص284.

[3] –Drague G, op.cit, p.254.

[4]–الخداري محمد، م.س، ص 260.

[5] –Drouin Jeannine, op.cit, p.14.

[6] – Ibidem.

[7]– أكنسوس، م.س، ص303.

– الناصري، م.س، ص115.

[8]– أكنسوس، م.س، ص304.

[9]– نفسه.

سليمان من قلوب الرعية فلم يمتثل له أمر في عصاتها حتى لقي الله تعالى"[1]. كما أدت إلى انتشار الفوضى والاضطرابات وتفكك المؤسسة المخزنية وعجزها عن فرض سلطتها في مختلف مناطق المغرب.

قاد أبو بكر أمهاوش مقاتليه من القبائل الموالية له، بتحريض ودعم من زعيم الطريقة الدرقاوية ضد المولى سليمان الذي فقد مشروعيته الدينية حسب هذه الأوساط الدينية والقبلية المحافظة، "واستحوذوا على مزارع مكناسة ومسارحها، فنصب لهم السلطان حبالة الطمع وكادهم بها ...إلى أن وفد عليه منهم في مرة سبعمائة فارس من أعيانهم فقبض عليهم وجردهم من الخيل والسلاح وأودعهم السجن...وقامت بسبب ذلك فتنة البربر على ساق...وزحفوا إلى مكناسة وحاصروها وجاءوا معهم بدجالهم أبي بكر أمهاوش"[2]. وفي سنة 1820م تزعم مولاي العربي الدرقاوي حركة "انقلابية" بمشاركة الحاج العربي الوزاني شيخ الزاوية الوزانية[3] وعدد من أعيان مدينة فاس بهدف خلع السلطان المولى سليمان وتنصيب مولاي إبراهيم ابن السلطان السابق مولاي يزيد[4]، لكن حادثا فجائيا أنقذ السلطان، فمولاي العربي المنتشي بالنصر حل –دون اتخاذ إجراءات احتياطية– قبالة جيش الأوداية لكي يحصل على ولاء إحدى الفرق العسكرية التي بقيت مخلصة للسلطان، فتم إلقاء القبض عليه، مما جعل القوات القبلية الأمازيغية توقف هجماتها لإنقاذ حياة الشيخ الدرقاوي، وهكذا قام الزعيمان الدرقاويان أبوبكر امهاوش والقائد بلغازي الزموري، الذي "كان من أصحاب الشيخ المذكور وممن له فيه اعتقاد كبير"[5]، بتوقيع هدنة مع المخزن الذي احتفظ بالشيخ الدرقاوي رهينة لديه.

بعد وفاة السلطان المولى سليمان، "بويع السلطان المولى عبد الرحمن فزاد البربر ذلك الحلف توكيدا وشدة...لاسيما رئيسهم الحاج محمد بن الغازي الزموري فجد في صرف وجوه البربر عن السلطان واستعان في ذلك بأبي بكر أمهاوش فروض له رؤساء البربر حتى اجتمعت كلمتهم...وجعل لذلك سببا وهو أن الشيخ أبا عبد الله الدرقاوي كان مسجونا عند الودايا واستمر في السجن إلى أن بويع المولى عبد الرحمن"[6]. ورغبة منه في تحقيق التقارب مع الدرقاويين وبالتالي وضع حد لهذه الأزمة، قام السلطان المولى عبد الرحمان بإطلاق سراح الشيخ الدرقاوي[7].

وعلى غرار السلطان المولى إسماعيل تبنى السلطان المولى الحسن سياسة دينية حاول من خلالها تدجين الطرق والزوايا وإخضاع شيوخها. ووعيا منه بالخطورة التي يشكلها آل امهاوش الدرقاويون والهزائم التي ألحقوها

–الناصري، م.س، ص138.

[1] –نفسه، ص137.

[2] – نفسه، ص138.

[3] –Drague G, op.cit, p.152.

[4] –Drouin Jeannine, op.cit, p.14.

[5] – الناصري، م.س، ج 9، ص6.

[6] – نفسه.

[7] –Drouin Jeannine, op.cit, p.14.

بمولاي سليمان، ورغبة منه في القضاء على هذا الخطر المحذق، تحالف المولى الحسن مع الزعيم الزياني موحا أوحمو أمهاوش[1]، حيث قام سنة 1888م بالهجوم على منطقة الذي كان في صراع دائم مع سيدي علي زعيم آل ألمسيد التابعة لآل امهاوش[2] بمساندة القبائل الزيانية. ورغم إعلان قبائل آيت سخمان خضوعها، فإن الزعيم الزياني الذي كان يرغب في إضعاف خصمه وتأزيم وضعيته، نصح السلطان بفرض غرامة مالية ثقيلة[3] عليهم. وافقت قبائل آيت سخمان على قرار السلطان الذي كلف عمه مولاي سرور باستخلاص هذه الغرامة بمساعدة قوات مخزنية قليلة العدد، لكن هذه الأخيرة وقعت في كمين نصبه لها سيدي علي امهاوش مما أدى إلى مقتل عم السلطان رفقة قواته[4].

هكذا إذن شكلت نهاية القرن التاسع عشر المرحلة الأخيرة من مسلسل الإخضاع الكامل لجل الزوايا والطرق الدينية، وخصوصا منها ذات النفوذ الواسع مثل الوزانية والناصرية والشرقاوية...وذلك بتبني المخزن لسلسلة من الإجراءات الهادفة إلى احتواء هذه الزوايا، عبر الحد من نفوذها الديني والسياسي وإدماجها ضمن النسق المخزني، فأصبحت عبارة عن مؤسسات مخزنية مهمتها تمثيل المخزن في مناطق نفوذها وحماية مصالحه والدفاع عنها ، فتحول زعماؤها من رجالات علم)هبات، عقارات، إعفاءات ضريبية...(مقابل تمتعها بامتيازات متنوعة

---

[1] –Drague G, op.cit, p.157.

[2] –Ibid, p.155.

[3] –Ibidem.

[4] – بن لحسن محمد، نظرية المقاومة من خلال مخطوط كباء العنبر من عظماء زيان وأطلس البربر: دراسة تنظيرية مع توثيق النص، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة، مرقونة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية– بني ملال، ج1997،III، ص481.

وتصوف إلى إقطاعيين همهم الأساسي الحفاظ على امتيازاتهم وجمع الأموال ومراكمة الثروات. لكن وبعد ضعف المخزن وعجزه كان من الطبيعي أن يبحث بعض شيوخ هذه الزوايا ورجالاتها عن سلطة داعمة أخرى تحافظ على مكتسباتهم وتدعم طموحاتهم، فكان انتقالهم من الوصاية المخزنية إلى وصاية وحماية سلطات الحماية الفرنسية. لقد أدرك هؤلاء مبكرا ضرورة البحث عن موطئ قدم لهم في العهد الجديد ضمانا لاستمرارية امتيازاتهم وحفاظا عليها فرحبوا بالمشروع الاستعماري ودعموه وأقنعوا أنصارهم وأتباعهم بايجابياته ومزاياه.

لكن إذا كانت النتيجة النهائية التي آلت إليها هذه السياسات المخزنية تجاه الزوايا هي انتهاؤها بتقديم خدمات وتسهيلات للمخزن الفرنسي، بعدما كان دورها سابقا خدمة المخزن المغربي ومساندة قراراته ومواقفه تعتبر نموذجا للزاوية التي انفلتت من السيطرة المخزنية ونجت من عملية الإخضاع وتزكيتها، فإن الزاوية الدرقاوية والاحتواء التي نهجها المخزن، وبالتالي تميزت مواقفها بنوع من الاستقلالية النسبية بل ودخلت في صراعات عديدة ضده.

وقد جعلت هذه المعارضة التي تبنتها الزعامات الدرقاوية ضد السلطة السياسية، ورفضها لسياسات المخزن وتشددها إزاء كل سلطة حاكمة، من الطريقة الدرقاوية أخطر طريقة دينية في المغرب تؤطر العديد من الانتفاضات والثورات وتدعمها وتقف وراءها، وقد كان المخزن واعيا بما تشكله هذه المؤسسة الدينية والسياسية الممتدة في مختلف مناطق المغرب من خطورة ومن بعده القوات الاستعمارية التي حسبت لها ألف حساب.

إن تميز الزاوية الدرقاوية بموقفها المعارض للمؤسسة المخزنية وإن كان يضع هذه الزاوية في إطارها السياسي والإيديولوجي كتيار ديني وسياسي معارض، ويجعل من تزعمها لحركة الجهاد ضد قوات الاحتلال باعتبارها قوات مسيحية من الناحية الدينية وقوات غازية محتلة من الناحية السياسية، أي أن حركة الجهاد هذه اتخذت شكلا مزدوجا يتمثل في الدفاع عن الدين والحفاظ على الاستقلال، فإن ذلك لا يمكن لوحده أن يفسر المعارضة الصارمة التي انتهجتها تجاه المشروع التوسعي الفرنسي، إذ لابد من الأخذ بعين الاعتبار طبيعة هذه الزاوية وبنياتها وهياكلها ومكوناتها والعلاقات مع محيطها السوسيو اقتصادي الذي نسجت فيه شبكة ولاءاتها، علما بأن مواقف هذه الأخيرة وكغيرها من المؤسسات لا بد وأن يتماشى مع طبيعة مكونات زعاماتها ومصالح مريديها انسجاما مع العلاقة الجدلية القائمة بين المكانة الاقتصادية والاجتماعية من جهة والدور الاجتماعي السياسي من جهة أخرى.

إن الزاوية الدرقاوية باعتبارها زاوية بدوية جل أتباعها ومريديها ينتمون إلى المناطق الجبلية والصحراوية النائية (الأطلس المتوسط والجنوب الشرقي المغربي...)، أي أنهم كانوا في معظمهم من الفئات الشعبية في المجتمعات القبلية التي تعيش حياة الكفاف، وبالتالي لم تكن لهذه الأوساط القبلية مصالح اقتصادية كبيرة قد تتأثر بضغوطات ومضايقات الإدارة الفرنسية خصوصا وأنها لم تكن من صنف الزوايا المخزنية ذات الطبيعة الإقطاعية.

خاتمة:

لهذه الاعتبارات إذن ولغيرها كان من الطبيعي أن تنتقل الزاوية الدرقاوية من رفضها لتدخلات المخزن وسياساته إلى رفض كل أشكال حضور المحتل في المجتمع المغربي. كما كان من الطبيعي أيضا أن تكون المناطق البعيدة عن المؤسسة المخزنية والتي لا تدخل ضمن نطاق سيطرتها المباشرة مثل الأطلس المتوسط والجنوب الشرقي أراضي خصبة لانتشار الأفكار والمبادئ الدرقاوية، ومعاقل مفضلة لظهور أهم الزعامات الجهادية الدرقاوية التي انبرت لتنوير الرأي العام المغربي وتحسيسه بمخاطر المؤامرات الاستعمارية الفرنسية وأهدافها بالمغرب، وتعبئة القبائل المغربية وتأطيرها وحثها على التصدي لها والوقوف في وجهها، مع ما تطلبه ذلك من رد فعل حازم ومعارض. وهذا بالضبط ما جسده شيوخ الزاوية الدرقاوية عموما، وفسر تفوقهم على غيرهم من الزوايا التي كانت تفقد أتباعها بسرعة لحساب الدرقاويين. بل إن الزاوية الدرقاوية ستقدم في هذا الظرف الدقيق والحرج من تاريخ المغرب زعامات سياسية وعسكرية سيكون لها شأن كبير في قيادة حركة الجهاد والمقاومة.

.....